المنصـــور بن أبي عامر في شعر ابن دراج القسطلي

د. عبد القادر هني و شابحة حمرون
جامعة الجزائر2

قبل أن نشرع في الكشف عن شخصية المنصور بن أبي عامر كما تجلت في شعر ابن دراج القسطلي يجمل بنا، ومن دون الخوض في تفاصيل تاريخية تثقل مقالنا أن نشير إلى أن وفاة الحكم المستنصر خليفة الأندلس سنة 366 هـــ فتحت مجالاً للتنافس على السلطة بين طائفة من العناصر التي استطاعت أن تضمن مكاناً في محيطها ، بالنظر إلى أن هشام بن الحكم المرشح لخلافة أبيه لم يكن قد بلغ سن الاحتلام ففكرت بعض أطراف النزاع في صرف الأمر إلى عمه المغيرة الذي نجحت الأطراف المعارضة في تدبير مكيدة لتصفيته ، فتـــمت البيعة لهشام كيما يسهل الحجر عليه والاستئثار بالسلطة من دونه ، وهو ما اتفق للمنصور بن أبي عامر بعد أن تخلص من منافسيه واحدًا واحدًا فأحكم قبضته على كل شيء واستحوذ بالسلطات وحده من دون سواه و أصبح سيد الأندلس من غير منازع فساسها سياسة ضمنت لها الأمن والاستقرار والحياة الكريمة ، فقد ساس الأمور كما قال ابن عذاري نقلا عن الفتح

بن خاقان «أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك و اتضحت به المســـــــالك و انتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق ، و ملك الأندلس بضعا و عشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة و لم تزخر لمكروه لجة ، لبست فيـــــــها البهاء والإشراق ، و تنفست عن مثل أنفاس العراق ، و كانت أيامه أحمد أيام وسهام بأسه أشد سهام» [1]

إن شخصية تتوافر على هذه الكفاءة هي الكفلية بضمان الأمن والاستقرار في بلد رؤوس الفتنة فيه لا تكاد تنام حتى تعاود الظهور فتنتشر الفتن ويَعُمَّ الاضطراب في حقب تولى سدة الحكم فيها حكام ضعاف كما حدث عقب وفاة عبد الرحمن الأوسط (ت 238 هـــ) إلى مطلع القرن الرابع الهجري و هي الفترة التي لخص حسين مؤنس حال بلاد الأندلس في أثنائها بمثل قوله: «فلما توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم و تولى الإمارة أمراء ضعفاء، امتد حكمهم ما يقرب من ثلثي قرن من الزمان (300-238 هـــ) ، تمزقت وحدة الأندلس وقام الثوار في سائر أنحائها بشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية واستقلوا بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتقلص نفوذ أمراء بني أمية فأصبح سلطانهم لا يتعدى قرطبة ونواحيها، وهكذا أحاطت الأخطار بدولة بني أمية التي كانت تجتاز يومئذ مرحلة من أدق مراحل تاريخها السيـــــاسي وتفككت الوحدة السياسية و تعددت أجناس أمراء الطوائف أو أصحاب الدويلات المستقلة»[2] ، هذا الوضع الذي تردت فيه الأندلس ، وإن استطاع عبد

الرحمن الناصر رأب صدعه فإن ابنه الحكم و إن بدا ظاهرًا أن الأمر قد استقام في عهده كل الاستقامة ، فإن ميله الواضح إلى تنشيط الحركة الثقافية على حساب إحكام قبضته على الحكم سيفتح الطريق لظهور عناصر مُتنفذة في القصر سيكُون لها دور بارز في إدارة شؤون الدولة وفي توجيه سياستها كما هي الحال بالنسبة إلى الحاجب المصحفي الذي قال عنه المقري «..... و لم يزل يستقل ويضطلع و ينتقل من مطلع إلى مطلع حتى التاح في أفق الخلافة و ارتاح إليها بعطفه كنشوان السلافة واستوزره المستنصر ، وعنه كان يسمع وبه يبصر وحجب الإمام وأسكب برأيه ذلك الغمام ، فأدرك لـــــذلك ما أدرك ونصب لأمانيه الحبائل والشراك فاقتنى اقتناء مدخر و أزرى بمن سواه و سخر ...»[3]

هذا مثال فرد للنفوذ الذي كان لبعض الشخصيات التي قربها الحكـــم المستنصر فغطت على غيرها و حجبت عليه الحقائق و أنبتت في النفوس أحقادًا و عدوات و هيأت للوضع الذي ستؤول إليه الأمور بعد وفاة الحكم (ت 366 هـــ) : فقد استحر الصراع بين العناصر التي كان الخليفة قد أسلس لها قياده في حياته فاستحلت كل الوسائل ، ما شـــــرف منها و ما رخص ، لبلوغ مآربها و بسط نفوذها و تعزيز مراكزها لتنقاد الأمور لها ، فكتبت الغلبة في النهاية لأشد هؤلاء الطامحين مكرًا ودهاء، وأكثرهم خبثاً ، الذي أدار الصـــــراع إدارة مكنته من إقصاء منافسيه والتخلص منهم واحدًا واحدًا و ليس هذا الرجل سوى المنصور بن أبي عامـــر الذي كان – كما يقول ابن الخطيب – «آية من آيات الله

فطرة دهاء و مكر وسياسة ، عدا بالمصافحة على الصقالبة حتى قتلهم، ثم بغالب على المصافحة حتى قتلهم ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه ، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده و استقام له أمره منفردًا بسابقـــة لا يشاركه فيها غيره».[4]

ومن الطبيعي و قد غَطَّى المنصور على من عداه و ألقى بظلاله على مسرح الأحداث داخل البلاد و حتى خارجها بما اتفق له من انتصارات في المعارك التي نقل رحاها إلى الجيران الأعداء الذين أدَّبهم و أحسن تأديبهم فانكفؤوا على أنفسهم و كفُّوا أيديهم عن الأندلس، ، أقول من الطبيعي و الأمر كذلك أن تلفت هذه الشخصية اهتمام شاعر من قامة ابن دراج القسطلي الذي قَضَّى عشرة أعوام في ظل حكم ابن أبي عامر بُسِط خلالها رداءُ الأمن على البلاد فعادات الطمأنينة إلى النفوس فاستلذت الحياة فاقبلت على نعيمها تَعُبُّ منه عبّاً . في هذا الأوان الذي انقشع فيها الغيم على أهل الأندلس و على أهل قرطبة على وجه الخصوص أغدّ ابن دراج ، و هو في أوج قوة الشباب ، إذ لم تتجاوز سِنُّهُ يومئذٍ خمسا و ثلاثين سنةً ، السير نحو هذه المدينة التي خطفت أضواؤها كل الأنظار و سحرت بما اتفق لها عصرئذٍ من جمـــال و بهاء العيون فتعلقت بها النفوس و هامت بها القلوب فوفد على المنصور بن أبي عامر و البلاط آنئذٍ يعج بشعراء يرمقون بعين السخط كل وافد جديد و يلفقون

له من التهم أشكالاً و ألواناً لإسقاطه قبل أن يلوح بريق نجمه ، فعن وصول ابن دراج إلى بلاط قرطبة يقول الحميدي « و كان للشعراء أيام المنصور أبي عامر ديوان يرزقون منه على مراتبهم ، و لا يخلُّون بالخدمة بالشعر في مظانها ، فسُعي به إلى المنصور ، و أنه مُنتحلٌ سارق لا يستحق أن يُثبت في ديوان العطاء فاستحضره عَشِيَّ يوم الخميس لثلاث من شوال سنة اثنتين و ثمانين و ثلاثمائة ، و اختبره واقترح عليه ، فبرز و سبق ، وزالت التهمة عنه ، فوصله بمائة دينار ، و أجرى عليه الرزق ، و أثبته في جملة الشعراء »[5].

إن عدم ترحيب شعراء ديوان المنصور بن أبي عامر بوفادة ابن دراج ، و سعيهم لإسقاطه بأخطر تهمة تلصق بشاعر و هي السرقة و الانتحال ، يدل فيما يدل عليه على إحساس هؤلاء الشعراء بعلوّ كعبه في حلبة القريض ، وشعورهم من ثَمَّ بالظلال التي سيلقيها عليهم و باهتزاز الأرض تحت أقدامهم و بالمنزلة التي سيحظى بها لدى شخصية طموحة تبحث عن صوت شعري قوي يُذيع دوي انتصاراته و أمجاده في الآفاق ، فقد ذكر الحميدي في جذوة المقتبس أنه لما اتفق لابن أبي عامر فتح شنت ياقب و غيرها من القلاع الحصينة التي لم يصل إليها أحد قبله ، استدعى ابن دراج و عبد الملك بن إدريس الجزيري وأمرهما بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة ، فجاءه ابن دراج بعد المهلة التي طلبها منه « بنسخة الفتح، وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، و مشاهد القتال و كيفية الحال، بأحسن وصف ، و أبدع رصف، فاستُحسنت ، ووقع الإعجاب بها ،

و لم تزل منقولة متداولة إلى الآن ، و ما بقي من نُسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر «.[6]

فإذا كان تردد قصيدة القسطلي في الفتح المشار إليه قد تواصل إلى أيام تأليف جذوة المقتبس الذي يقع في حدود سنة 448 هـ فيما عفّى الزمن على كتاب الجزيري ، فإن سيرورة شعره هذه تنم عن رسوخ قدمه وعلوِّ قامته في حلبة الشعر ، و هي مترلة و كّدها له مؤرخو الأدب الأندلسي فاعترفوا له بالسبق و التقدم على أقرانه و معاصريه كما عبَّر عن ذلك ابن بسام الذي قال في حقه « كان أبو عمر القَسْطلِّي وَقْتَهُ لسان الجزيرة شاعرًا و أوَّلاً حين عدَّ معاصريه من شعرائها المشهورة ، و آخر حاملي لوائها و بهجة أرضها و سمائها ، و أُسْوة كُتّابها و شعرائها ، له عُقِدَ فخرُها المحمولُ و سُهِمَ ، و به بدئ ذكرها الجميلُ و خُتم ، حَلَّ اسمه من الأماني محل الأُنسْ، و سار نظمه و نثره في الأقاصي و الأداني مسير الشمس ، و أحد من تَضاءلتِ الآفاق عن جلالة قدوره ، و كانت الشام و العراق أدنى خُطى ذكره «.[7]

هذه المكانة التي تَسَنَّمَها بفضل موهبته و جعلته يستحق في نظر بعْضِ من ترجم له صفة الفحولة في الشعر و لقب مُتَنَبّي المغرب [8]،هي التي استشعرها — ربما — شعراء ديوان المنصور فعملوا على قطع طريقه إلى البلاط العامري ، و هي التي لاحت معالمها لابن أبي عامر — على ما يبدو — من خلال القصيدة التي ترنَّم بها بين يديه فدفعت عنه همة السطو على أشعار غيره ، و عقدت الصلة بينه و بين هذه الشخصية التي ستكون

مُلْهِمَةَ جُلّ ما جادت به قريحته من درر في مدة اتصاله بها التي امتدت من 382 هـ إلى التحاق المنصور بالرفيق الأعلى عام 392 هـ ، و ليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب من أن يدير جل شعره – إن لم يكن كله– حول الحاجب العامري الذي لم يعد في ناظره مجرد ممدوح يُنشَد، فيعطي إنما كان يمثل بالنسبة إليه رمزًا للقوة و البطولة و الانتصار ، و هو ما حدا بمحقق ديوانه إلى القول « و إعجاب ابن دراج بشخصية هذا البطل الإسلامي إنما كان صورة لإعجاب الشعب الأندلسي المسلم جمعيه به ، فقد كان المنصور رمزًا لمجد الإسلام في تلك البلاد ، ذلك المجد لم يقدر للمسلمين أن يستعيدوه مرة أخرى طوال تاريخهم في إسبانيا بعد انتشار سلك الدولة العامرية » [9].

إن القول في المنصور ستمليه بناء على ما ذكرناه ، دوافع تتجاوز الاعتبارات المادية التي يرتبط بها شعر المدح في الغالب و التي و إن كنا لانستثني منها شعر ابن دراج في ابن أبي عامر استثناء كاملاً لا سيما في الأيام الأولى من اتصاله به ، فإننا نُرجّح أن تكون شخصية المنصور وإنجازاته هي محركه الأول و باعثه على القول .و لا نستبعد ، كما أومأنا، أن تكون الحظوة التي وجدها عند هذه الشخصية الرمز و ما كانت تغدقه عليه بسخاء محفزًا آخر لإطلاق اللسان من كل قيد في إبداء الكلام وإعادته في فضائل المنصور بن أبي عامر على البلاد و العباد و هو ماكان المنصور في مسيس الحاجة إليه ليغطي على النهج الذي انتهجه للوصول إلى السلطة و جمع مقاليدها في يده، فكان أحوج ما يكون إلى

أديب شاعر من مترلة ابن دراج يُعلي نجم مُلكه و يبرر سيرته في الاستبداد بالأمر و اغتصاب الملك من بين أيدي هشام المؤيد بالحيلة و الكيد و المكر و الدهاء ، فشاعر مفلق من مترلة القسطلي هو الذي بمستطاعه أن يثمن و يزين في أعين الناس ما يُعد تطاولاً و جرأة غير مسبوقة من المنصور ، و قمين بالقصيدة التي أنشدها بين يديه غداة وفادته عليه أن تنبهه إلى ما يتوافر عليه هذا الشاعر القادم من قسطلة دراج من مواهب و قدرات تؤهله للمهمة التي سيلقي بثقلها عليه ، و قد استهل هذه القصيدة كما يلي:

أضاء لها فجر النّهى فنهاهـــــا   عن الدَّنِفِ المُضْنَى بِحَرِّ هواها
وَظللَها صبحٌ جلا ليلة الدُّجَى   و قد كان يَهدِيها إليَّ دُجاهـــا

و هما البيتان اللذان أثبتهما الحميدي في جذرة المقتبس ثم علق على القصيدة كلها بمثل قوله « و هي طويلة مستحسنة ، فساء الظن بَجْودة ما أتى به من الشعر و اتُّهم فيه» (10). و إذا عرفنا أن ممن أساؤوا الظن فيه من شعراء الديوان صاعد البغدَادي الذي كان نجمة يومئذٍ ساطعاً في قصر المنصور ، و عرفنا أيضا أن القسطلي اختار أن تكون قصيدته المطعون فيها في معارضة قصيدة لصاعد ، حسبما ذكره الحميدي ، ظهر لنا أن ابن دراج قد أبان عن نواياه مبكرًا و هي زحزحة شاعر المنصور الأول عن العرش الذي تربع عليه ليستأثر بتمجيد هذا البطل الرمز الذي نتوقع أن تكون أخبار بطولاته و انتصاراته قد تناهت إليه و هو في بلدته فكانت من بين العوامل التي حفزته على أن ييمم وجهه نحو حاضرة

الملك قرطبة ، ليكرس شعره لخدمته و إذاعة صورته في الآفاق ، فكان عليه إذًا أن يفرض نفسه بفنه و بكل ما حباه الله به من مواهب في هذا المضمار. و يبدو لنا أن القصيدة التي ارتجلها بحضرة المنصور ليرد على متهميه و المشككين في أصالة شعره خير بيان على طموحه لأَنْ يكون شاعر المنصور الأول غير مدافع ، فلنصغ إليه و هو يرد على مَنْ لَفَّقُوا له تهمة السرقة و الانتحال في قصيدة وصفها الحميدي بالحسنة الطويلة. فمما جاء فيها من إشارات إلى ما ذكرناه قوله (11):

وَلَسْتُ أوّلَ من أَعْيَتْ بَدائعـَـهُ فاستدعت القَّوْلَ ممن ظَنَّ أوحَسِباَ
إن امرأ القيس في بَعْضٍ لَمُتّـَـهَمٌ وفي يَدَيْهِ لِواءُ الشعر « إن ركبا»
والشعرُ قد أَسَرَ الأعشى و قَيَّدَهُ خُبْرًا و قد قِيلَ «والأعشى إذا شربا»
وكيف أظما و بحري زاخِرٌ فطناً إلى خيال من الضحضاح قد نضبا؟
فإن نأى الشَّـكُّ عَنّيَ أَو فهَا أنذا مُهيأً لِجـَلي الخُبـْرِ مُرْتقِـباَ

هذه القصيدة التي برَّز فيها و حَلَّق أخرصت خصومه و ألقمتهم حجارة مدمية : فقد قربة المنصور من نفسه وجَلَّ عنده ، فأصبح منذئذٍ لسان حال الدولة العامرية وسبّاق حلبة شعرائها كما جاء في الذخيرة (12)، فاكتسب ثقة أكبر في النفس، فانطلق لسانه و تدفق فنه بوفرة بعد انكشاف الغم الذي شَمِلَهُ جَرَّاءَ المؤامرة التي دُبرت لخنق أنفاسه و لي عنقه ، فسجَّل انتصـــــاره على المتآمرين بصوت لم يَخلُ من الزهو و الفخار و الخيلاء ، كما تنطق بذلك الأبيات الآتية التي نختارها من القصيدة نفسها (13):

عبدٌ لِنُعْمَاكَ في كَفَّيه نَجْمُ هُدًى سار بمدحِكَ يَجْلُو الشَّكَّ و الرِّيبَا
إن شئتَ أَمْلَى بديع الشّعرِ أو كتبا أو شئتَ خَاطَبَ بالمنثور أو خَطَبا
كَرَوْضَةِ الحَزْنِ أهْدَى الوَشْيَ مَنْظَرُها و الماء و الزَّهْرَ و الأنوار و العُشُبا
أو سَابقَ الخيلَ أَعْطَى الحُضْر متئدًا و الشَدَّ و الكرَّ و التقريب و الخببا
من بعد ما أضرم الواشون جاحمة كانت ضلوعي و أحشائي لها حطبا
و دسسوا لي في مثنى حَبَائلهم شنعاءَ بثتُّ بهاحرَّان مكتئبا
حتى هُزِزْتُ فلا زَنْدُ القريض كَبَا فيها لَدَيَّ و لا سيـــف البديه نبا
وأشرقت شاهدات الحقِ تنشـــر لي نُورًا غَدَتْ فيه أقـــوال الوشاة هبا
هيهات ! أعْجَزَ أهل الأرض أن يجدوا للدُّرِ غيـــرَ عُبابِ البـــحر مُنتسَبا
وحاشَ للورد أن يُعزَى إلى رمضِ وأن يَكون لـــه غيـــرُ الربيع أبا !

أصبح الأمان يملأ جوانح ابن دراج في لحظة النصر هذه التي احتضَنَهُ فيها المنصور بملء ذراعيه : فسكنه إحساس عميق بمستقبله شاعرًا خادما للدولة التي وجدت فيه الشاعر القوي العارضة الذي كانت تفتش عنه ، و مُنْذُ هذا الأوان الذي أُلبس فيه تاج دولة الشعر في ظل الدولة العامرية وانعقد له فيها لواء النصر الفني ، تبدأُ رحلته مع الحاجب العامري الذي كانت بيده مقاليد الرياسة ، بعد أن ألقى عصا تسياره عند بابه و طوى صفحة من حياته لا نعرف عنها الشيء الكثير ليفتح صفحة أخرى منها و القريض قد انقاد له و أسلس له القياد فأبان فيه عن باع طويل كما تَشِفُّ عن ذلك الأبيات التي أثبتناها من القصيدة التي أبطل بها مزاعم

خصومه و كسب بها ثقة ممدوحه ، وكما تؤيد ذلك بعض العبارات التي تخللت الكلام الذي ترجم له به بعض مؤرخي الأدب ، فهو عند الحميدي مثلا «معدودٌ في جملة العلماء و المقدمين من الشعراء و المذكورين من البلغاء ، و شعره كثير مجموع يَدُل على علمه ، و له طريقة في البلاغة و الرسائل تدل على اتساعه و قوته ... سمعت أبا محمد بن أحمد و كان عالماً بنقد الشعر يقول : لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أَبْعُد و قال مرة أخرى : لو لم يكن لنا من فحول الشعر إلاَّ ابن دراج لما تأخر عن شَأو حبيب و المتنبي «[14] ، و عن بعض ما يُمَيَّز شعره يقول الشاعر الناقد ابن شُهيد :» و الفرق بين أبي عمر و غيره أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر و اللغة و النسب و ما تراه من حَوْكِه للكلام و مِلْكِه لأحرار الألفاظ وسعة صدره و جَيْشَة بحره و صحة قدرته على البديع و طول طلقه في الوصف و بُغيته للمعنى وترديده وتلاعبه به وتكريره وراحته بما يُتعب الناس وسَعَة نفسه فيما يُضَيقُ الأنفاس»[15].

أما ابن بسام الذي شَعَر أن « من ذكره لم يوفه حقه و لا أَعْطَاهُ وَفْقَهُ و لا استوفى تَقدُّمَهُ و سَبْقَهُ» [16]، فنعت شعره بالنظم الرائق الذي سار مع نثره « في الأقاصي و الأداني مسير الشمس «[17].

على النحو الذي بَيَّناه، وقع اللقاء بين شاعر فَذ مُبَرَّز قوي الشكيمة ذي لسانٍ مِقْوالٍ مِدرارٍ ، وبطلٍ ذي همة قعساء ، فُلاذي الإرادة، مشرئب العنق نحو غايات تقف دونها المخاطر و المهالك فترافقا المدة

التي ألمحنا إليها ، و هي فترة كانت حافلة بالأحداث غنية بالإنجازات و الانتصارات التي تحققت لابن أبي عامر داخل بلاد الأندلس و خارجها ، فالمقّري يذكر أن ابن دراج رافق المنصور في أكثر غزواته التي بلغ عددها « ستاً و خمسن غزوة في سائر أيام ملكه لم تنكس له فيها راية و لا فلّ له جيش ...»[18]، و في سياق مماّثل نقل المقّري عن الفتح بن خاقان قوله في غزوات المنصور « إنه تمرَّسَ ببلاد الشرك أعظم تمرس و محا من طواغيتها كل تعجرف و تغطرس ، وغادرهم صَرْعى البقاع ، و تركهم أذلّ من وَتَدٍ بقاعٍ ، و والى على بلادهم الوقائع ، و سدَّد إلى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغَصَّ بالحِمَام أرواحهم ، و نغصَّ بتلك الآلام بُكُورَهم و رَوَاحهم»[19] ، و يؤكد الحميدي هذه الهمة و هذه الروح الجهادية عند ابن أبي عامر فيذكر أنه « كان ربما يخرج إلى المصلى يوم العيد فتقع له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره و يخرج بعد انصرافه من الصلاة كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه العساكر و تلحق به أولاً فأولاً ، فلا يصل إلى أوائل الدروب إلا و قد لحقه كل من أراد من العساكر .غزا نيفاً وخميسين غزوة ذكرت في المآثر العامرية ، و فتح فتوحاً كثيرة ، و وصل إلى معاقل جمة امتنعت على كل من كان قبله و ملأ الأندلس بالغنائم والسبي و كان في أكثر زمانه لا يخل بغزوتين في السنة «[20].

أوردنا هذه النصوص لا لِنُثقل مقالنا بالمادة التاريخية بقصد ملء الفراغ، إنما لنستشرف العلاقة التي ستنعقد بين الشاعر و بين ممدوحه، فالإنجازات البطولية التي تعرضت لها النصوص التي أثبتناها و غيرها لم تكن من قبيل

الأسطوري أو العجائبي الذي يحلو للخيال نسج مشاهده وصوره، بل هي واقع أكده التاريخ ، لذلك لا نستبعد أن تتطور علاقة ابن دراج بالمنصور لتصبح علاقة إعجاب و هيام بهذه الشخصية التي صنعت أمجاد المسلمين و مفاخرهم في الأندلس ، وحمت ذمارهم وديارهم وردَّت المكايد عن دولتهم ، فأضحت مأسر القلوب و مهوى الأفئدة ، فاستحقت التخليد ، و هذا ربما ما جعل محمد علي مكي يُحِسُّ شبهاً بين ما دَبَّجَهُ القسطلي في المنصور من شعرٍ و بين ما حبَّره المتنبي من مدح في سيف الدولة فقال: «والذي يقرأ شعر ابن دراج في القائد العامري ، لا يملك تفكيره من أن يَثِبَ إلى مدائح المتنبي لسيف الدولة ، فهو مدح ، لا يقوم فقط على الطمع و الرغبة – أي شاعر أو غير شاعر تجرد منهما ؟ و إنما المصدر الأول فيه هو شعور قوي من الإعجاب بشخصية الممدوح»[21].

قمين إذاً بشخصية مثل شخصية المنصور العامري التي حالفها النصر تلو النصر و انقاد للبلاد في ظلها عُنُقُ الاستقرار و الرخاء ، أن توفر لشاعر ذي لسان مدرار – كما ذكرنا- مادة عزيزة للقول ، فما احتفظ به ديوان ابن دراج مما خص به القائد العامري يقدر باثنتين و ثلاثين قطعة و قصيدة سوى ما يكون قد ذهب في خروم النسخة المخطوطة مما توقع محقق الديوان أن يكون من مدائح القسطلي العامرية [22].

و يجمل بنا في البحث عن ملامح هذه الشخصية في شعر ابن دراج الذي أفرغ فيها عددًا جماً من بدائعه ،أن نستهِلَّ رحلتنا مع الشاعر بقصيدة الوفادة ، لنقف على الخيوط الأولى التي رام رسمها لممدوح

سيأخذ منه مجامع القلب ، فيتفرغ له — في فترة اتصاله به — تفرغ الحبيب لمحبوبه ، حتى لا يكاد يلتفت إلى غيره . و سنحاول التوقف — بصفة خاصة- عند الأبيات التي أفردها منها للمدح الذي تخلص إليه بعد ستة و عشرين بيتًا سلخها في التقديم — شأن الأقدمين- للغرض الرئيس في القصيدة كما يلي [23]:

وَ أُحْيي نُفُوس الركب من ميتة الكَرى و قد عَطَفَ الليلُ التمامُ طُلاَها
بذكر أيادي العامـــري التي طَمـــت على نَأْي آفاقِ البِلاَد مُنَـــاها

ولكنه ينعطف بعد هذين البيتين ثانية إلى إكمال مقدمته بذكر تفاصيل أخرى عن رحلته إلى المنصور و ما صادفه خلالها من مصاعب و أهوال الطريق و ما أورث ذلك الرَّكْبَ من شديد المعاناة ، ليعود مرة أخرى إلى المدح في بيتين على هذا النحو :[24]

عسى راحة المنصور تعقب راحة وحتم لآمال العفاة عساهـــا
فلله منه قائد الحمـــد قادهـــــا ومنّى محدود الخطوب حداها

سوى إنه لا يواصل المدح كما هي العادة في أغلب الشعر العربي القديم إنما عدل عنه مرة أخرى للحديث عن أسرته التي خلفها وراءه طعماً لحرقة الفراق و ناره و نهباً للخوف مما تطويه لها الأيام — في غياب المعيل- من مفاجآت و من جفاء الأقربين ، و يغتنم لنفسه ، في هذا الموضع فرصة أخرى ليسوق بيتا آخر هو في الظاهر جواب لابنته التي من شدة تعلقها به كانت تبذل قصارى الجهد لحمله على التراجع عن قرار الرحلة إلى المنصور ، بينما هو في الأصل ضرب من الثناء على شيمة من

الشيم في ممدوحه فقد صاغه على النحو الآتي :(25)

وأقسم جود العامريّ ليرجعن حفيا بها من كان قبل جفاها

وتتتابع، بعد البيت الذي أعقب هذا، إشارات إلى الممدوح تَصُبُّ كلها في نفس مجرى المَعنى الذي ضمنه بيته السابق، قال:

وأَنَّى لها مثوى أبيها و قد دَعَـــتْ بوارقُ كفّ العامِري أباهـــا

بُنَيَّ إليك اليـــوم عَنّـــي فإنَّهـــا عزائِمُ كَفُّ العامِريّ مـــداها

فحطَّت بِمَغْنَى الجودِ و المجد رَحْلَها وألقت بِرَبْعِ المُكْرَماتِ عَصَاها

لدى ملك إحدى لواحظِ طـــرفه بعين الرِّضَا حَسْبُ المُنى وكفاها

بعد هذه الأبيات التي ركَّز فيها ابن دراج على صفة الكرم و الجود في ممدوحه و هي من الصفات التي ألف الشعراء القدامى نسبة ممدوحيهم إليها ، يخرج إلى مدحه بمعانٍ أخرى فيقول :(27)

هو الحاجِبُ المنصور و الملك الـــذي سَعَى فـــتعال جَدُّه فتنـــاهى

سليلُ الملوكِ الصِّيدِ من سَرْو حِمْيَر الذي توسَّط في الأحساب سَمْك ذُرَاها

لبابُ معاليـــها و إنســـانُ عَيْنِها وبَدْرُ دَيَاجِيـــهَا و سمش ضحاها

مُعَظَّمُـــها مَنْصُـورُها و جَوَادُها وفارسُـــها يومَ الوغى و فتاها

ووَارثُ مُلْـك أَثْلَتُـــه مُلُوكُهـــاَ وأوْرثـــه سبي الملوك «سباها»

ذوُو الملك والتيجـــان والغرور التيوجَامِعُ شَمْليْ مجْدِهاَ و عُلاَهَا

نَمـــَاهُ لِقَـــوْدِ الخيل تُبَّعُ فَخرِها جَـــدِيرٌ بها التيجانُ أن تتباهى

شُمُـــوسُ اعتلاء تُوِّجَـــتْ بأهلَّةٍ وسُرْبِلَـتِ الآجال فَهْو كَسَاها

تعمدنا تعمدًا أن نورد ما يقارب الثلث من هذه القصيدة التي اشتملت على ثلاثة و خمسين بيتاً ، لنتابع ابن دراج في تعامله مع ممدوحه منذ أول وفادته عليه و كيما تتكشف لنا ملامح شخصية المنصور كما ارتسمت في مخيال الشاعر فبالعودة إلى ما عرضناه من أبيات نلاحظ أنه يمكن تُصنيفها في مجموعتين من المعاني، تدور أولاهما حول معني السخاء و العطاء الجزيل أما ثانيهما فتتصل بأصل الممدوح و كرم نجاره و مجده الأثيل و فروسيته.

فيما يخص الصنف الأول من المعاني ، و قد جاء متفرقاً في أكثر من موطن في القصيدة ، فإنه يبدو في ظاهره غير خارج عن منظومة المعاني التقليدية في المدح كما تقدمت الإشارة ، غير أنها تضمنت وراء ذلك — في نظرنا- قيمة أخرى جاءتها من صلتها بالموضوعات الثواني التي رافقت المدح و التي امتدت أكثر من امتداد المدح نفسه، لا لأن الشاعر أشاح بنظره عن ممدوحه و أنزله في منزلة دون المنزلة التي كان أسلافه يرفعون إليها ممدوحيهم ، و إنما لأن الغاية التي حددها لقصيدته اقتضت منه أن يسلك هذا المسلك في عرضها ، فالشاعر ، كما تفصح عن ذلك القصيدة، كان يعاني الضياع المؤذن بالهلاك ، و إنسان هذه هي حاله ، من الطبيعي أن ينشد الخلاص من هذه الوهدة و أن يُبدي الكلام و يعيده في ظروف وصوله إلى الممدوح و العقبات التي انتصبت حياله و كادت تحول بينه و بين بلوغ بابه ، و هو أسلوب استفاده القسطلي — من دون الشك — من قراءاته في الشعر العربي القديم ، و لكن ما أضافه إلى معاني

المجموعة الأولى التي رشحت إليه من مقروئيته ، هو طريقته في التعامل مع ممدوحه . فمع كون وفادته هذه هي الأولى من نوعها على المنصور بالنسبة إليه . و هي وفادة لا تخلو من طابع المغامرة و من النتائج غير المضمونة ، بالنظر إلى أن بلاط ابن أبي عامر كان غاية عزيزة المنال ، و ولوجه غير متاحٍ لأي كان، و العقبة الأولى أمام طُرّاق بابه ـــ كما تقدم ـــ هي شعراء المنصور أنفسهم الذين ليس من السهل أن يقبلوا شريكا لهم في نعمائهم ، و مع ذلك نرى ابن دراج و دون سابق معرفة بممدوحه يتعامل معه من دون كلفة في شعره ، فيسميه عند أول ذكرٍ له في القصيدة « العامري» ، و هو لقب في صيغته هذه و في موقعه من النص يمكن أن ينصرف إلى غيره من بني عامر ، لكن هذا الذي يبدو في ظاهره جرأة من الشاعر سابقة لأوانها ، هو عنصر الجدة في مخاطبة الملوك لِمَا في هذا الاختيار من مفاجأة لخروجه عن المألوف في المدح لاسيما عند أول لقاء ، فإيثار هذه التسمية على غيرها في هذا الموضع من القصيدة يَنِمُّ عن الألفة التي أحسها الشاعر من ممدوحه حتى قبل أن يظفر برضاه ، فكأنّي به كان يُسر للمنصور ، في هذا الموطن ، معاني أخرى في الإعلاء من شأنه لا يُفصِحُ عنها ظاهر اللفظ ، منها أن سمعته قد طبقت الآفاق و أصبحت النفوس التي لا تعرفه تشعر بالقرب منه و بانعقاد الصلة بينه و بينها حتى قبل شهوده ، لأنه مَلَكَ عليها جوارحها و جوانحها ، و ملأ أحناءها حبّاً ، فأضحى قطعة منها ، فسقطت الحواجز و الكلفة بينه و بينها ، و مَلِكٌ قد تعلقت به النفوس هذا التعلق و شغفها حبًّا ، لا

يمكن أن تكون الرحلة إليه مغامرة ، بل إن من أرخى عنان دابته نحوه لا ينظر إلاّ أنْ يرى الخير و نعيم الحياة و قد أقبلا عليه حبوًا ، لذلك نرى الشاعر يجدد نشاط صحبه و يطرد عنهم التعب و الكرى باللَّهَج باسم « العامري « و بما ينتظرهم من عطائه الوفير . و إبعادًا لوهم الجرأة الوقحة و التَّسَوُّرِ على الملوك نراه بعد أبيات أخرى صوَّر فيها ما نال الركب من إجهادٍ و إعياء في فلاة استهلكت جسومهم و انحلتها ، نراه يعود إلى معنى المنح والعطاء ، مما قد يُعد في ظاهر الأمر تكرارًا لا مسوّغ له ، لكن للشاعر في ظننا ، رأياً آخر ، فهو ، من ناحية ، يريد أن يبيّن للمدوح أن الأمل معقود عليه في تفريخ روعه و جبر كسره و تضميد جراحه برفع شكاته عنه و تفريج ضائقته ، ثم إنه إذْ ذكره هنا باسمه الشخصي ، فإنه ليؤكد أن صنيعه في البيت المتقدم حين لقبه بـــ:» العامري» ، ليس من قبيل الجهل باسمه أو التجاهل لمنزلته و مقامه بين العامريين ، إنما لأن هذا اللقب العام بكل ثقله التاريخي أضحى إذا أطلق انصرف إليه وحده من دون سواه بوصفه النموذج و المثال لبني عامر عبر التاريخ ، أي إنه غدا مجمعاً للأمجاد و للفضائل و المناقب الموجودة مفرقة عند من عَدَاه من بني قومه و هذا ما سَوَّغ له — في تقديرنا — العودة إلى إطلاق هذا اللقب عليه مقترناً أيضاً بمعنى الجود و العطاء الذي بلغ أمل الشاعر في نَيْلِه مبلغ اليقين:

فليس من شيم من استحق هذه التسمية من دون أهله ، فَغَدَت أَدَلَّ عليه منه على غيره أن يُخّيبَ رجاءً أو أن يكون الأمل في عطائه كالأمل في برق خُلَّبٍ ، و هو ما يترجمه قوله الذي أثبتناه فيما تقدم :

و أقسم جُودُ العَامِرِيّ لِيَرْجِعَنْ خفياً بِها من كان قَبلُ جفاها

ليس المُرادُ من المعنى الذي تضمنه هذا البيت التحدث ، مجرد التحدث عن كرم الممدوح وجوده مثلما جرت العادة في قصائد المدح ، إنما المراد منه إضفاء قدرة خارقة على المنصور على تغيير الأحوال و قلبها رأساً على عقب : فبعد أن كـــــان القسطلي و عيـــاله يعيشون معيشة ضنكا على هامـــش المجتمع ، جعلت الناس يشيحون بوجوههم عنهم تحقيرًا و ازدراءً ، حتى لكأنهم من سقط المتاع الذي لا يلوي الركب به ، إذا بالعامري يجعل الأعناق التي كانت متطاولة عليهم بالأمس تنحني لهم و تشرئب متطلعة إليهم و القلوب التي جفتهم تهفو نحوهم ، و الألسنة التي ازدرتهم تلهج بذكرهم.وبيِّنةٌ علاقة معنى هذا البيت بما كان ذَكَرَهُ قبلاً من أن ما تَجُودُ به راحةُ المنصور و تُغدِقُ من آثاره جلب الراحة للممنوح له ، بمعنى إن عطاياه بمنزلة ما يجلب الشفاء للعليل و يعيد إليه قواه بعد انهيارها و يضفي عليه الرواء بعد ما طاله من شحوب و هزالٍ ، فالعامري إذاً يذود الموت عن الناس و يَرُدُّ عليهم غوائل الدهر و يؤمنهم من مخاوف الفاقة التي تترصدهم و من مهالكها . كما وَكَّدَ الشاعر ذلك بانعطافه مرة أخرى على معنى الكرم ، على سبيل المبالغة ، فأرانا الركب و قد بلغ ديار الممدوح ، و كأني به أناخ على الجود نفسه فغمرته المكرمات من كل جانب ، فنسي ضناه و متاعبه ، فأضحت أيام الضيق والفاقة مجرد ذكريات خلفها الركب وراءه ، فعادت إليه الحياة من جديد أو عاد إليها من بعيد بعد أن كادت الأنفس وقد نال منها السَّغب أن

تَرِدَ المهالك، فكأني بالشاعر وصحبه قد ولدوا من جديد وَسَطَ نعيم وافرٍ وحمايةٍ مضمونة من غوائل الدهر.

فحطت بمغنى الجود والمجد رحلها وألقت بربع المكرمات عصاها

لدى ملك إحدى لواحظ طرفه بعين الرضا حسب المنى وكفاها

فقد وقف الشاعر هنا مرة أخرى عند معنى العطاء والسخاء الذي تناوله في أبيات سابقة، وهذا التكرار له دلالة ينبغي أن نبحث عنها في أعماق ابن دراج: فالقسطلي كان يعيش في عُسْرٍ وفي ضيق حال شديد قبل وفادته على المنصور، فارتبطت رغبته في الانعتاق من هذه الحال بالمال، فراح يبدي فيه الكلام ويعيده بحسبه وسيلة لدفع شبح الفاقة التي ضيقت عليه وعلى عياله الخناق.

بعد هذا الذي وقفنا عنده، نراه يخرج إلى مدح المنصور بفضائل أخرى استمدها من منظومة القيم المدحية التقليدية، فقد أنزله في أعلى منزلة بين قومه الأقربين و الأبعدين, بعد أن أبان عن أصالة نسبه و كرم نجاره, ثم أمعن في إبراز قيمته في قومه و شدة حاجتهم إليه فإذا هو بالنسبة إليهم بمنزلة إنسان العين الذي لا يمكن أن تصلح أو تؤدي وظيفتها الحيوية من دونه, فكذلك المنصور, فهو النور الذي به يهتدون و قائدهم الذي هم به يسترشدون, فإذا غاب عنهم ضلوا السبيل و تعثرت بهم القدم كتعثر من فقد نور البصر بكل ما يعترضه في الطريق من عقبات. و توكيدا لمعنى الريادة والهداية الذي خصّ به ابن دراج شخص ممدوحه من دون سواه من أبناء قومه, نراه يجعل منه بدرهم الذي به يهتدون حين تتراكب

الظلمات و تشتد و تلتبس عليهم السبل و تتفرق, فيتفرقون أيدي سبأ, فتداهمهم المخاطر و المهالك من كل مكان, فيضحون مهدّدين بذهاب ريحهم في جوف الظلمات, فإذا به يخرجهم منها فينقذهم مما هم آئلون إليه. و كيما يزيد مترلة ممدوحه بروزا بين قومه فإنّه جعل منه أيضا شمس ضحاهم. هكذا نلحظ كيف كان التركيز متتاليا على معنى النور في بيت واحد. و حياة البشر لا تستقيم و لا تستطاب في غياب النور,و المولى تعالى نفسه وصف نفسه أنه نور السموات و الأرض «الله نور السموات و الأرض... «[28] معنى ذلك أن المنصور في منظور القسطلي هو عمود الحياة و مرتكزها بالنسبة إلى رعيته, فمثله مثل الشمس التي تتنكّد حياتها من دونها, أو كنعمة نور البصر التي إذا ما حرمها الإنسان عاش مصاعب و متاعب جمة. و هو أيضا كالبدر الذي إذا ما توارى واشتدت الظلمات و تراكب بعضها فوق بعض أورث ذلك النفس فرقا شديدا و تقاذفتها الوساوس و المخاوف في كل اتجاه و ركبها الذعر مما يتراءى لها من أشباح و صور حتى لتتمنى الموت ر أنّى لها أن تظفر به! و يبدو لنا أنّ معنى «النور» هنا مرتبط أيضا بحياة الشاعر نفسه في علاقتها بالمنصور, فحاجته إلى الانعتاق مما طوّق عنقه من ظروف شديدة قبل وصوله إلى قرطبة تجسّدت في هذا المعنى, فالدنيا و قد أسدلت بينه و بين مباهجها-و هو في قسطلة دراج- سترا صفيقة, ولّدت في نفسه شوقا إلى أنوارها التي يمثل المنصور بالنسبة إليه مصدرها و مبعث أشعتها, فهو المعوّل عليه في بزوغ فجر يوم جديد, بعد انحسار الظلام المتراكب الذي أناخ عليه و هو

في جوف مهمه قفر أو كما قال في الحديث عن رحلته و راحلته[29].

أشجّ بها و الليل مرخ سدوله سباريت أرض لا يراغ قطاها.

و دائما, و في هذه المجموعة الثانية من المعاني, نراه يسهر على تقوية الصورة الحاضرة لممدوحه بمعان يحفر عنها في أعماق التاريخ, فنسبه في حمير التي ورث ملكه من ملوكها, كما استمد مجده و فخاره منها. وفروسيته ليست هي الأخرى طارئة و لا حديثة, بل هي ضاربة بجذورها في القدم, فقد قال[30]:

نماه لقود الخيل «تبّع» فخـــرها و أورثه سبي الملـــوك «سبـــــاها»

فما دامت الملوكية جارية في دمه, فمن حقّه أن يعتلي ذراها و أن تتطأطأ له الرؤوس و تنحني الأعناق طاعة و خضوعا. و ليس غريبا أن يوقّع ابن دراج على هذه المعاني التي تلحّ على كرم نجار الممدوح و على عراقة نسبه و مجده التليد و فروسيته و على مفاخر قومه, و أن يذهب بعيدا في رفع الحجب عن الإرث النفيس من القيم التي يتوافر عليها ممدوحه و التي يرجح بها سجلّه على سجّل من عداه, فبحكم ثقافته التي تتنزّل في إطار الثقافة التقليدية, فإنه يعتقد, كما اعتقد أسلافه الذينيترسم خطاهم أن « طريق المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه, و الآباء تزداد شرفا به, فيجعل لكل منهم في الفخر حظا و في المدح نصيبا، فإذا حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين عليهم، بل كان لكل فريق منهم، لأن شرف الولد جزء من ميراثه، و منتقل إلى ولده كانتقال ماله، فإن رُعي و حُرس ثبت و ازداد، و إن أهمل و أضيع هلك و باد، و كذلك شرف

الولد يعمُّ القبيلة و للوالد منه القسم الأوفر»[31]، لذلك ستتكرر في مدحه مثلما تكررت عند أسلافه الذين غرف من ينابيعهم. لكن ما لابد من لفت الانتباه إليه هو علاقة مثل هذه المعاني بالسياق الاجتماعي و السياسي الذي يتنزل فيه شعر ابن دراج؛ فالقسطلي كان على وعي أنه يمدح شخصية ما يزال الشعور بالانتماء إلى القبيلة متوهجًا في ذاتها، إذ توافرت جملة من العوامل في الأندلس- ليس هنا مجال شرحها- ساعدت على استمرار الإحساس القبلي و على تكريسه بين الفئات الاجتماعية، فمن الطبيعي و قد رشح نفسه من خلال هذه القصيدة ليكون شاعر المنصور ألاّ يغيب عن ذهنه التحدّث عن هذا الجانب في شخصيته و يظهره واضحا للعيان على سبيل الاستدلال الضمني على أحقيّته في الملك، فإذا كان قد استأثر بالسلطة و جمع مقاليدها في يده فإن ذلك ليس اجتراء منه على ما لم يؤهله لَهُ ماضيه و حاضره، معنى ذلك أن وراء ظاهر اللفظ خطابًا آخر له علاقة بالأحداث السياسية و بالظروف التي وصل في أثنائها ممدوح الشاعر إلى هرم السلطة، فحجب صوته الأصوات الأخرى و أخرسها، فكأنّ ابن دراج في هذا الموضع كان يخاطب أموية الأندلس الذين ساءهم أن تنتقل السلطة الفعلية من أيدي العدنانية إلى أيدي أعدائهم التقليديين من اليمنية، فراح يحاجِجُهُم بالإرث الثقيل الذي يُسند المنصور و يدعم منزلته، و زاد هو منزلته تعزيزا بما أضافه إلى ذلك الإرث من فضائل و مناقب، لذلك أبرزه ابن دراج على أنه جوهرة عقد اليمانين و خلاصة معدنهم النفيس كما تنطق بذلك هائيته.

و إذا عدنا مرة أخرى إلى الأبيات المفردة للمدح في هذه القصيدة نفسها، فإننا نلاحظ أن ما تعلق منها بحاضر الممدوح يتصل كلّه بالعطاء و الجود، أمّـــا ما تعلق منه بالماضي فيدور حول عراقة النسب و الفروسية التي ورّثها إياه أجداده، و الأمجاد الشامخة التي بنوها لـــه. و يتبـــين من هذا أن معرفة الشاعر بالمنصور ما تزال في بدايتها، لذلك كان الغالب هنا هو الاقتصاد فيها اتصل بشخص الممدوح من فضائل و الاتجاه إلى التفصيل فيما له علاقة بما هو تاريخي مما يشكل جزءا من ثقافة ابن دراج. وإذا صَحَّ أن هذه القصيدة قد تكون لها بقيّة سقطت[32]، فمن المرجح أن تكون هذه البقية امتدادًا لاستعراض مفاخر أجداد الممدوح و فضائلهم التي درج الشعراء الأقدمون على جعلها ينبوعا دائم التدفق ، يستمد منه الممدوح الأمجاد و المفاخر التي يُعزِّزُ بها حاضره، فهي كالسّلاح الذي يشهره في وجه خصومه و كالرصيد المعنوي الذي يعزز به ثقته في نفسه.

على ضوء الملاحظات السابقة يمكننا القول ، إن ابن دراج لم يرتبط في هذه القصيدة ارتباطا شديدا بواقع ممدوحه الذي كان يومئذٍ مُتَمَوِّجًا بالأحداث مَوَّارًا بها، لكن ما أن تتوطد صلته بابن أبي عامر حتى يصبح شعره بمنزلة «الشاشة» التي تنعكس عليها كلّ ما تقع عليه عينه أو يقرع سمعه من وقائع و أحداث مما له علاقة بالمنصور. و إذا كان غير متيـــسر في مثل هذه العجالة استعراض كل ما ضمَّه ديوان القسطلي من قصائد و مقطوعات في الحاجب العامري، و هي كثيرة، غير ما يكون قد

ضاع أو ذهب في خروم النسخة المخطوطة، كما ذكرنا من قبل، فإننا سننتخب منها بعض النماذج نمثل بها لما نحن فيه. و الأمثلة الأولى التي نختارها لهذا الغرض، بعد تلك التي توقفنا عندها، نستقيها من القصيدة التي حبَّرها الشاعر في المنصور يوم أن وفد عليه شانجة بن غريسة ثالث ملوك البشكونس في مملكة نبارة[33]، زائرا مستصرخا على حدِّ تعبير ابن الخطيب، يُحَكِّمُه في نفسه و يُعلن خضوعه له و دخوله في طاعته؛ ذلك لأن هذا الملك كان قد جَدَّد عهود الخضوع للحكم المستنصر، و لكنه نكثها، فنقل إليه الحكم ثم المنصور بعده رحى الحرب فأذاقه فيها الصَّب و الصَبَر. ولما ضاقت به السُّبُل. لم يجد بدّا من العودة إلى الجادة و تجديد العهد مع قرطبة, فاستقبله المنصور استقبالا فخما, و كان ذلك عام 382هـ, و هي السنة التي ارتبط فيها القسطلي ببلاط ابن أبي عامر, فكان هذا الحدث الذي أفاض في وصفه ابن الخطيب[34], مناسبة جليلة حركت شيطان الشعر في نفس ابن دراج فخلدها بقصيدة بدأها بقوله[35]:

ألا هكذا فليسم للمجد من سما و يحم ذمار الملـــك من حمـــى

و إلاّ «فللمنصور» غايات ما شآ إليه بني الدنيا و أغراض من رمى

منذ البيت الأول نرى كيف يقدم ابن دراج ممدوحه على أنه المثل أو الأنموذج الفريد الذي ينبغي أن يترسم خطاه من كانت غايته بلوغ ذرا المجد التي أجملها ابتداء في حماية الملك و نصرة الدين، و نلحظ أنَّ هذين العنصرين اللذين سيشكلان المركز الذي ستنصَبُّ فيه بقية

أبيات القصيدة غير مفصولين عن السياق التاريخي الذي ألمحنا إليه: فعهد المنصورين بن أبي عامر، لاسيما في أيامه الأولى، مثّل مرحلة تسوّر الدول المسيحية المجاورة على دولة الإسلام في الأندلس، الأمر الذي حمل الحاجب العامري على أن يجعل أولى أهدافه حماية الدولـــة و الدين، بنقل رحى الحرب إلى أراضي المعتدين، فغادر أهلها «صرعى البقاع و تركهم أذل من وتد بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع، و سدَّدَ إلى أكبادهم سهام الفجائع، و أغَصَّ بالحمام أرواحهم و نغَّصَ بتلك الآلام بكورهم و رواحهم»[36]، مثلما أوردنا ذلك من قبل نقلاً عن المقَّري في النفح. و من الطبيعي وقد جعل المنصور غايته الأولى دفع الأذى عن الدولة و الدين أنْ يُلقِي بالدنيا وراء ظهره و يَصُبَّ كل جهده في درك هذه الغاية التي تمثل بالنسبة إليه العلق النفيس الذي جرَّد سيفه لحمايته، غير مبالٍ بالأخطار التي تتربص به في كلّ منعطف، و لا بالموت الذي يترصد خطاه؛ فهمَّتُه القعساء هوَّنت على نفسه الرَّدى و «مستعظم الهول» الذي ترتعد له فرائس صغار النفوس المتعلقين بصغائر الدنيا, خلافًا للمنصور الذي علقت نفسه «أوجه المجد»، فأضحى بها «صبًّا متيمًا»، فأغنته عن التلفت لما يتلفت إليه الناس من متع عابرة، فابن أبي عامر بهذا المعنى عاشق ولهان لكن معشوقه الذي سلب عليه لُبَّه و ملأ قلبه فأمتلكه ليس امرأة من لحم و دم، إنّما هو ما كان أعلنه الشاعر في البيت الأول، أي حماية «ذمار الملك و الدين»، فهما محبوبه الذي تيمه فاختزل الدنيا فيه و لم يَعُد يرى لنفسه غاية سواه تستأهل أن يسترخص لها مُهجته أو يركب من أجلها الأهوال[37]:

و حَقٌّ لِمن لاقى فأقدم سَيْفُــهُ   على غمرات الموت أن يتقدَّمَا

و من حقرت مستعظم الهول نفسه   إذا الخيلُ كرَّت أن يكون المعظَّما

و من ملَّ أُنس المال حتى تحكَّمت   على ما حَوَت كفَّاه أن يُتَحَكَّما

و من حمتِ العِلقَ النفيس سيوفه   من الضيم أن تختار مُرتَعَ الحما

و من تيَّمته أوجُهُ المجد أن يرى   و قلبُ العلا صَبًّا إليه متيمـــا

إن السِّمة الرئيسة للمنصور في الأبيات هي التميّز عن الخلق في ما يعشقون، فهو على هذا من معدنٍ فريد لا يضاهيه في ذلك أي مخلوقٍ، و هذا المعنى يلتقي مع معنى الفرادة الذي أسبغَهُ عليه في القصيدة السابقة حين جعله واسطة العقد و لُبَّابٍ في قومٍ بلغوا سدرة المنتهى مجدا و حسبا و نسبا.

و نعتقد أنه حين جعله واحدا لا شريك له في المهمة التي انتدب إليها نفسه, إنما كان يحتجّ له ضدّ من عانده و زاحمه ممن نفسوا عليه مترلته أو رأوا أنه تجاوز الحدّ في القبض على السلطة و الاستيلاء على الدولة. و كيما يتجاوز مجرد الكلام عمّا كان قدّمه عن همّة ممدوحه و طموحه البعيد الغاية و الذي أوجزه في قوله(38):

و لله يا «منصـــور» آراؤك التي   بنيت بها نحو الكواكب سلّما

نقول, كيما يتجاوز ذلك راح يعطي البيان و الحجة المفحمة من الواقع الذي يعرفه الناس و الذي لا يستطيعون نكرانه, لذلك نراه بعد البيت الذي أثبتناه يخرج للتحدث عن شانجة نفسه مركزا في بادئ الأمر على ما يبرز مترلته و عظمته في قومه, فإذا هو(39):

سليل ملوك الكفر في ذروة السّنا و وارث ملك الروم أقدم أقدما

توسّط أنساب القياصر فانتمى من الصيد و الأملاك أقرب منتمى

إن إبراز القسطلّي هذه الجوانب من شخصية شانجة ذو علاقة بالمقام الأسمى الذي أراد أن يجلس فيه المنصور, و بما كان ذكره قبلا من قدرته على تحقيق طموحاته التي بلغت عنان السماء, فهذا الملك الذي يجره خلفه تاريخا عريقا و مجدا مؤثلا, لم يجد بدّا من الخنوع و الخضوع لإرادة المنصور, فجاءه صاغرا ذليلا فوقف بين يديه مثلما يقف العبد بين يدي سيده خاضعا مطيعا, و لم يغنه اليوم ملكه الشامخ و لا مجده العريق, فقد تضعضع كل ذلك و تهاوى و غدا خرابا بلقعا كأن لم يغن بالأمس أمام ملك المنصور و مجده و مضاء عزمه و إرادته التي لا تفل و لا تقهر, فملك البشكنش لم يلق إليه بيده و هو صاغر إلاّ بعد أن خبر قوته و صلابة عزمه التي لا تنثني و لا تنحني, فهو يمضي إلى غايته دون وجل أو خوف مهما كانت العقبات شدادا, لأن نفسه قد «حقرت مستعظم الهول». و المعنى المضمر الذي يسفر لنا عن وجهه بعد المقابلة بين مكانة شانجة بين قومه و بين حاله و قد مثل بين يدي المنصور هو أيضا معنى الفرادة الذي ألمحنا إليه, فابن أبي عامر نسيج وحده في دنيا الملوك, فليس هناك من يشبهه أو يضاهيه, فالملوك مهما سمت منازلهم و تعالت, و مهما ثقل الإرث الذي يقف وراءهم أو يدعمهم فإنّهم صغار, أقزام أمامه, لا يملكون إلاّ أن يسمعوا و يطيعوا و يأتمروا بما قرّر و أمر, مثلما هي حال «عظيم الشرك» شانجة —كما أسماه- الذي جاء خاضعا ذليلا يحكّمه في

نفسه و ينشد لديه الحياة الآمنة و النجاة من الردى متخليا عن هيبة الملوك و كبريائهم يجرّ معه نفسا تسربلت بثوب الذل و الهوان , لا حول له و لا طول. لكن هذا الملك الذي جاء المنصور خاضعا ذليلا لم يجد منه إلاّ الإحسان و الكرم, فهو إذ أذاقه نار الحرب في عقر داره عقابا له و تأديبا على نقضه العهد, فإنه حين مثل بين يديه خانعا منكسرا, أحاطه بفضله و أسبغ عليه وافر نعمه, و منّ عليه بعفوه و عطفه. هكذا تلتقي في شخص المنصور صفتان تبدوان في الظاهر متناقضتين, و لكنهما في الجوهر متكاملتان, فهو شديد على العدوّ يذيقه أنكى الهزائم و أمرّها, يدوس أرضه و يدكّ حصونه بخيله و يحتز رقابه بسيوفه و ينشر الذعر و الرعب في بلاده, و لكنه إذا جاءه تائبا نادما على ما فرط منه, فإنه يجد عنده الصدر الرحب و القلب الرحيم الذي يقبل التوبة فيصفح عن الجاني و يرد إليه كرامته و يلبسه ثوب العز, بعد أن كساه لباس الذل و الخوف, قال ابن دراج[41]:

لئن سمته البأســـاء في عقـــر داره لقد عضته في دار ملكك أنعمـــا
لئن خاض في استقبالك الجود و الندى لقد خاض في آثارك النقع والدّما
بسطت له أمنا و قد بسط القنـــا ثرى أرضه من هلّها بك أعظما

وقد راح يؤكد في أبيات أخرى غير هذه على سمتي الشدة و الحزم من ناحية و على الرأفة و اللطف من ناحية ثانية عند المنصور, و هما سمتان لا تدلان على تناقض ما في شخصيته, فلكل منهما مقامها و سياقها عنده, لأن ابن أبي عامر يحسن تقدير المواقف فيلبس لكل منهما اللبوس الذي

يناسبه, و حسن التقدير هنا سمة من سمات رجاحة العقل و كماله, و هو المعنى الذي ينبثق من السلوك الذي سلكه المنصور في الموقفين اللذين وضعه فيهما الشاعر. و هذا المعنى يدخل في عداد الخصال التي كانت تمدح بها الملوك, سوى إننا نعتقد أن إلحاح ابن دراج على ثنائية الضراوة و الرأفة كان هدفه منه الكشف عن البعد الإنساني في شخصية ممدوحه, فالتركيز على البطش و الفتك و حدهما قد يبديه أقرب إلى الوحش الذي يجهز على فريسته فيمزقها شرّ ممزق, لذلك حرص الشاعر على أن يضفي عليه بعدا آخر يلحقه بالأناسي, بل بأخصّ خاصتهم الذين يعفون على الجاني عند المقدرة و يشملونه بكرمهم, و هم إذ يصنعون ما يصنعون فكأنهم يهبون له الحياة مجددا في موقف يكون مصيره بأيديهم, و إتلاف روحه أو إحياؤها رهن إشارتهم, و بذلك يكون ابن دراج قد نفى عن المنصور أن يكون من سفاكي الدماء, ليجعل منه شخصا نصيرا للحياة مؤثرا لها على الموت و الفناء, و الموقف الذي قدمه للموكب الرهيب الذي استقبل به الملك البشكنشي يؤكد الفكرة التي أشرنا إليها, لأن المشهد الذي أبرز فيه الشاعر جيش المنصور عددا و عدة يوحي بالرعب و يثير الفرق و الإحساس بدنوّ الأجل في النفوس, فقد جاء وصف هذا المشهد كما يلي(42):

جنودٌ كأنَّ الأرض من لمعـــانهـــا   بروق تلألأَ أو حريق تضَرَّمــــــــــا
سحابٌ من البيض الخوافق قد علا   وبحرٌ من السَّرد المضاعف قد طمى
بكلِّ كـــمِّي عامــــريّ كأنَّمـــا   تسربل من شمس الضحى وتعمّها

فجاء وقيد الرَّوع يقصر خطــوَه ويمتد في حبل الخضوع تقــدمــا

يخاطب عن رعب و إن كان مفصحا ويُفصحُ عن ذعرٍ و إن كان أعجما

إذا راعَهُ هــول الجنــد فأحجمــا تداركــه ذكــرى رِضاك فأقدما

إن ما سيتحقق في خاتمة المطاف، كما يوحي البيت الأخير في المجموعة هو النجاة و انتصار الأمان على الخوف، و الحياة على الموت، فالهول الذي أثاره مشهد الجيش العامري لطّفه رضا المنصور الذي ضمن الأمان للملك المُروَّع، فعادت نفسه إلى مستقرها، و بذلك يكون القسطلي قد ارتقى بممدوحه إلى أعلى المراتب في إنسانيته من حيث حِرصه على حياة الآخرين و أرواحهم، سواء في ذلك رعيته و أعداؤه حين يعدلون عن عصيانهم و يتوبون إلى رشدهم. و قد تولد من هذا المعنى معنى آخر ذو بُعدٍ أخلاقي له علاقة بالتربية و التهذيب، فابن دراج جعل ممدوحه هنا مثله مثل المعلم الذي يسترشد به الآخرون في حياتهم و يتولى هو تأديبهم و تقويم المعوج من سلوكهم، و هو المعنى الذي يؤديه قوله[43]:

رمى نفسه قسرًا إلى الملك الــذي رأى الدهر مملوكا له فتعلَّما

فإذا كان شانجة قد عاد إلى الصواب فلأنه رأى الدهر نفسه في قبضة ابن أبي عامر، فكان له ذلك درسا فَهِمَ منه أن العناد غير مجدٍ و أنه من الخطل الإصرارُ على تنكُّبِ جادة الصواب و المكوث في ضلاله القديم. وما دام تعليم الآخرين و تأديبهم مهمة من مهامه، فمعنى ذلك أن خبرته بالحياة أغنى من خبراتهم و حرصه على قيمها العليا أشد من حرصهم، وَ وَعْيُه بالمصلحة العامة أعمق من وعيهم. و هنا يضعنا الشاعر إزاء

شخصية هي المثل الأعلى للقيم التي يجب أن يأخذها بها الناس أنفسهم، لأن المعلم بمفهومه العام في الثقافة العربية الإسلامية التي تمثل مرجعية ابن دراج هو نموذج الكمال العلمي والأخلاقي، فهو الذي يمتلك المعرفة و منظومة القيم السلوكية. هكذا نرى مرة أخرى تأكيده على معنى الفرادة و التميّز لدى ممدوحه.

إن العودة إلى الأمثلة التي سقناها تبيّن بوضوح أن المنصور أضحى بالنسبة إلى شاعرنا المثل الأعلى و البطل الذي ملكـــ عليه نفسه و ملأ جوانحه إعجابا, فلم يعد يرى من يضارعه في فرادته. فعلى الناس إذا أن يسيروا خلفه و أن يهتدوا بهديه, فهو الإمام الذي يرسم لهم طريق سيرهم, فمن خالفه و تنكّب نهجه ضلّ و استحق التقويم و التأديب, كما حدث لشانجة الذي زلّت به القدم فعالجه المنصور بما يناسب جريرته, فجاءه طائعا خاضعا تائبا نادما على ما فرط منه كما رأينا. و يتواصل التوكيد على فرادة شخصية ابن أبي عامر حتى ليبدو و كأنّي به المركز أمّا غيره فيمثل الهامش, أو قل إنه المتربع على عرش الملوكية في الدنيا الذي تشرئب إليه أعناق الأمم التي يراقبها من عليائه أينما كانت, و لولا خشية السقوط في المبالغة لقلنا إن ابن دراج أراد أن يجعل من ممدوحه ظل الله في أرضه, لأن مثل الاستسلام و الخضوع للمنصور اللذين تناولهما في ميميته مثلا يذكران بعلاقة المولى تعالى جلت قدرته بعبيده, لاسيما أن الشاعر يعمم الخضوع و استرهان النفوس لابن أبي عامر على أمم الأرض

و ملوكها قاطبة, فالكل و من دون استثناء واقع تحت حكمه و لا يملك أحد منهم أن يعصي له أمرا أو كما قال(44):

جاءتك خاضعة أعناقها الأمـــم مستسلـــمين لما تمضـــي و تحتـــكم

و استرهنتك ملوك الأرض أنفسها ما استنفد البأس أو ما استدرك الكرم

فالمنصور يبدو دوما في مثل هذه الحال —عند ابن دراج– مالكا زمام النفوس لا يجرأ الخلق على مخالفته أو عصيان أوامره, لأنهم يعلمون أن عاقبة أمرهم إليه, و لا مفرّ منه إلاّ إليه كما تعبّر عن ذلك لامية القسطلّي التي استهلها كما يلي(45):

إليك منك فرار الخائف الوجل و في يديك أمان الفارس البطل

تقابلت نحوك الآفاق و اجتمعت على يمينك شتّى الطّرق و السّبل

و يمّمتك ملوك الأرض معلمـــة إليك نصّ نجاء الخيـــل و الإبل

إن المنصور في المعادلة التي رسمتها هذه اللاّمية يمثل الطرف المهيمن, بينما يمثل الملوك الآخرون الطرف المهيمن عليه, و قدرة الطرف الأول قدرة مطلقة لا تضاهيها أية قدرة بشرية, و إلاّ ما كان لتنقاد له « أعنّة الملك و الأيام و الدول», و ما كان ليرضخ لإرادته «الدهر و الأديان و الملل», فابن أبي عامر على هذا نسيج وحده بين بني البشر فيما مُنِحَهُ من سلطانٍ و قوةٍ خارقة, فأضحى الخلق له تبعا, فكأنّي بالشاعر أراد أن يقدمه لنا و كأنه كائن قُدَّ من معدن فريد أو كأنّ صورته في ذهن ابن دراج انطبعت كذلك, فالعلاقة بين المنصور والآخرين في هذه االلامية أشبه ما تكون بعلاقة الخالق تعالى بمخلوقاته يَوْمَ حَصْحَصَةِ الحق و عودة

الكلمة لله وحده ليقرر ما يشاء, فعناصر مشهد القيامة في هذه القصيدة يمكن تحديدها بيسر, فهناك المنصور صاحب السلطة القاهرة الذي يظهر كالمتربع على العرش, و هناك الخليقة التي هرعت إليه من كل حدب وصوب مهرولة يملأ نفوسها الخوف من عقابه و الرجاء في عفوه وأمانه,و هنا يظهر شانجة كأحد المذنبين الذين يتقدمون يوم القيامة بين يدي الله عزّ و جلّ معترفين له بذنوبهم و يرجونه أن يتجاوز عن سيئاتهم و يقيهم عذابه الذي لا ريب فيه, مبتهلا للمنصور يرجوه أن يصفح عنه. و هذا الموقف يذكرنا بموقف الذهول الّذي يكون عليه الناس يوم الحساب. و بانصراف العبد عن التفكير حتى في أقرب المقربين إليه من زوج و ولد, و يرينا الشاعر أشياع شانجة مسوقين لإنفاذ الحكم فيهم مثلما يساق الذين كفروا يوم القيامة إلى جهنّم زمرا مستسلمين لما قضاه الله من أمر كما جاء في الذكر الحكيم(46). و مثلما تبقى ثقة المرء في رحمة ربّه قائمة مهما كثرت ذنوبه أو كبرت, فإن أتباع شانجة هم الآخرون و إن كانوا لا يملكون أن يجادلوا المنصور فيما قرره, فإنهم لا يقطعون الأمل في عفوه.

على هذا النحو نرى بوضوح,كيف جاء مدح ابن دراج في هذا الموطن مبطنا بمبالغات شديدة في إجلال المنصور حتى ليمكننا القول إن ابن أبي عامر في مخيال القسطلي شخصية خارقة لها من الصفات ما ليس للآدميين. و نعتقد أن هذه المعاني التي صاغ منها شخصية ممدوحه ليست خاصة بالمواقف المتعلقة باستعراض قوة الدولة و هيبتها في مثل المناسبات التي عرضنا نماذج من شعر ابن دراج فيها, إنما هي ظاهرة تنسحب

على قصائده الأخرى في المنصور. فشاعرنا و إن لم ينته به الأمر إلى ما انتهى إليه ابن هاني في مدح المعز لدين الله الفاطمي, فإنه كان يتجاوز في بعض المواقف الحدود التي كان يلتزم بها الشعراء الأقدمون في المدح, فلننظر كيف يمتح معانيه من معين ديني ليفتح لنفسه الطريق لجعل ممدوحه يتلقى نصره و تأييده من الله عزّ و جلّ, فهو الذي يقضي له بقهر حزب الضلال, و الأقدار هي التي تحكم له بقهر الملوك, معنى ذلك أن نصره قدر مقدور لا تقوى قوة بشرية على حبسه أو على تغيير مجراه, و ما دام الأمر كذلك, فإن تأييد الله يتبعه أينما حلّ و يسير حيث يسير, فعزمه و إرادته من إرادة الرحمن, و جيشه الذي يدك به حصون الشرك هو جيشه أيضا كما يقول ابن دراج تصريحا, و هذه طائفة من الأبيات ننتخبها من قصيدته التي شيّع بها المنصور و قد خرج غازيا, نستشهد بها على ما قدمنا, قال في هذه المناسبة(47):

سر سار صنع الله حيث تسـير   قدما و ساعد عزمك المقدور
و وصلت موصولا ببغيتك المنى   و مسـيرا لمرادك التيسـير
و أعاد عادات جرت لك بالمنى   ربّ على أضعافهن قـدير
فالسعد بالنصر العزيز مخبـر   و اليمـن بالفتح المبين بشير
حكمت لك الأقدار أنك باهر   ملك الملوك و أنه مبهـور
و قضى لك الرحمن أنك قاهر   حزب الضلال و أنه مقهـور
فانهض بحزب الله يقدم جمعـه   حفظ الإله و سعيك المشكور

فإذا كانت الأبيات الأولى في هذا المجموع جاءت على سبيل الدعاء, فإن الشاعر بدءا من البيت الرابع أخذ يقرر معانيه تقريرا حتى لكأنّ ما وقع واقع لا محالة حتى قبل حدوثه, و ما ذلك إلاّ لأن النصر هنا لا دخل فيه لإرادة البشر إنما هي الإرادة الإلهية التي تصرّف الأمور كيف تشاء, وهي التي تتولى قيادة الأحداث من خلال حزب الله الذي لا يغلب, فكأنّي بابن دراج يستوحي قوله عزّ وجلّ « ومن يتولى الله و رسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون»[48], فالعناية الإلهية, على هذا, هي التي تتولى المنصور, و لا فضل لأي كان فيما حققه و سيحققه من فتوح و انتصارات على أهل الشرك الذين قضت إرادة الرحمن لممدوح القسطلي أن يخيب مسعاهم و أن يجرعهم أمرّ الهزائم, لذلك عندما يتحدث عن مناقبه فإنه يجعلها مناقب متفردة لا يشركه فيها بشر حتى لتعزّ الإحاطة بها أو كما قال[49]:

متفرّد بمناقب متقاصر عن كنهها المنظوم و المنثور

فماذا يمكن أن تكون هذه المناقب التي تجلّ عن الوصف و الحصر غير مناقب مستمدة من صفات الله التي تعيي بل تعجز من يروم تحديدها، فهي كالنور الشديد الذي إذا حَدَّقت فيه و أنعمت النظر، انقلب إليك بصرك « خاسئا و هو حسير» [50]، فهي إذا مناقبُ تسمو عما هو موجود مما يمكن أن تحدَّه مدارك الإنسان كيفما كانت قوتها، لأن لا مرجع لها في واقع الناس، فتصورها لا يكون إلاّ تخيلا و وهْمًا، لأنها داخلـــة في المطلق الذي لا مثل للأذهان عنه، و الذي كلما حاولت الاقتراب منه وقعت دونه و قَصَرت عن درك جوهره، فهل يسمح لنا هذا

القول، إن ابن دراج يميل في مدحه إلى تأليه ممدوحه أو بالأحرى يجعله شريكا للّـــه تعالى في بعض صفات ذاته ؟

إن شرعية هذا التساؤل تؤكدها بعض القرائن التي يقدمها لنا شعره في ابن أبي عامر، و هي قرائن قد تساعد على الإجابة بالإثبات عن السؤال السابق. فإذا كان المولى عزَّ و جل قد جعل النور سمة من سماته في قوله تعالى: « اللّه نـــــور السموات والأرض، مثل نـــــوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب ذري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء، و لو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم»[51]، فإننا نلاحظ أن ابن دراج كثير العودة إلى معجم النور في بعض قصائده في المنصور حتى جعل النور سمة من السمات الملازمة له، من ذلك قوله في قصيدة حائية مدحه بها[52]:

تبلّج عن إشراق غرّتك الصبـــح و أسفر عن إقدامك النصر والفتح
و قرّت عيون المسلمين بأوبـــة مصادرها عزّ و موردها نجح
وكأنّ شعاع الشمس من نور هديها و عرف نسيم الروض من طيبها نفح
و روّيت من ماء الجماجم و الطلى متون جياد شفها الظمأ الترح
بوارق ما أومضن عنك لناكـــث فأخلف من سقيا دم ديمة تسحو
صفائح أعداها سناك فأشرقـــت و لم يعدهنّ العفو منك و لا الصفح
سريت لهم بالخيل في ظلّ غيهـــب من الليل ما يطوى عليك له كشح
تقابل فيه البدر و البدر و القنـــــا و زهر نجوم الليل و الجنح و الجنح

و بيعة»شنت اقروج» أوريت فوقها سنا لهب فيه لعميائها شـــــرح

و كان لها الفصح الأجلّ فأصبحت لنارك فصحا ما لها بعده فصح

إن المعجم الدال على النور و ما له به علاقة في الأبيات التي عرضناها أوضح من أن يحتاج إلى بيان, فالألفاظ والعبارات التالية «تبلّج», «إشراق غرتك», «الصبح», «أسفر», «شعاع الشمس», «من نور هديها», «بوارق ما أومض», «سناك», «فأشرقت», «البدر», «زهر نجوم اليل», «سنا لهب», «فأصبحت لنارك فصحا», هذه الألفاظ والعبارات تحيل كلها على النور, و لا نعتقد أن الإكثار منها غير ذي دلالة, لاسيما أن المنصور في أغلبها قدم على أنه مصدر النور الذي يشع على العالم من حوله, نعمة و نقمة حسبما يقتضيه المقام. فالغالب على ظننا أن الشاعر يجعل من ممدوحه كائنا نورانيا, و لما كان النور يسمو عن التحديد, فإنه جعله كما رأينا يتفرد دون الأناسي بمناقب لا يحدها وصف, و ما دام كذلك فإنه من الطبيعي أن تكون نفسه «أنفس نفس في الورى»[53] كما جاء في الحائية التي انتخبنا منها الأبيات السابقة, وهذه النفس الغالية يجود بها بسخاء و دون تردد أو ندم في سبيل نصرة الدين و عزّته, وهنا يبرز بعد آخر في شخصية الممدوح و هو بعد ديني يتعلق بالتضحية بالغالي و النفيس ابتغاء مرضاة الله و أجره العظيم كما جاء في الذكر الحكيم[54], بمعنى إن قوة إيمانه بالله و طمعه في رضاه والظفر بما وعد به المخلصين الصادقين من عباده كل ذلك جعله يختار غير مكره التضحية بالنفس استجابة لنداء المولى عزّ و جلّ. و يمكننا أن نلمس في موقف

السماحة بالنفس من أجل غايات أسمى و أنبل حسن تقدير الممدوح للأمور, و لحسن التقدير علاقة بمعنى الحلم و رجاحة العقل, الذي أكثر العرب من التمدح به, و لكن ابن دراج لا يعطينا هذا المعنى سافرا إنما نستشفه مما وقع عليه اختيار ممدوحه في الموقف الصعب الذي وضعه فيه, فهذا الاختيار (السماحة بالنفس), ينبئ عن استجابة لنداء العقل و كتم رغبات النفس العاجلة و يدل على إيمان راسخ أن الآجلة خير و أبقى وأن ما في العاجلة نافد و فان مهما ترامى و كثر, مصداقا لقوله تعالى: «فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا و ما عند الله خير و أبقى للذين آمنوا و على ربّهم يتوكلون»[55].

نراه يعود إلى أمثال المعاني التي تعرضنا لها في غير ما قصيدة من قصائده في المنصور حتى ليخيل إلينا أن التداخل كان يقع بين الفينة و الأخرى في مخيلته بين شخصية بطله و بين المصطفى عليه الصلاة و السلام كما في قصيدته التي أنشأها بمناسبة حملة قادها المنصور إلى غرسية بن شانجة في بلاد البشكنس و منها هذه الأبيات[56]:

و سيف محلى بالمكارم جفنه معودة نصر الإله مضاربـــــــه
إذا سله دين الهدى بكر الردى لديه يراعي أمره و يراقبـــــــه
تخيره الرحمن من سرو حمير فناضل عنه باتك الحد قاضيـــــه
مخلدة في الصالحين سماتـــــه وباقية في العالمين مناقـــــــــه
حسام الإمام المصطفى وسنانه ومفزعه في المشكلات وحاجـــــه
هو القدر المحتوم من ذا يرده وسلطان رب العرش من ذا يغالبه؟

سما لعهد المشركين بعزمـــــه تداعت لها أركانه و جوانبـــــــه

وأخلفه الشيطان خادع وعده وأيقن أن الله عنك محاربـــــــــة

إن قارئ الأبيات لا يجد عنتا كبيرا في إدراك العلاقة بين ما تضمنته من معانٍ في مدح ابن أبي عامر وما يمكن أن يكون من المعاني خاصًا بأنبياء الله و بالمصطفى صلى الله عليه و سلم بوجه خاص، فحديث الشاعر عن اختيار المولى عز و جل المنصور «من سرو حمير» يعيد إلى الأذهان اختياره أنبياءه و رسله الذين كلفهم بتبليغ رسالاته، بل إن استخدام الفعل «تخيّر» بدلاً من الفعل «اختار» فيه إشارة إلى المبالغة في البحث و التنقيب ليكون الشخص الواقع عليه الاختيار هو خلاصة الخلاصة وجوهر الجوهر، لذلك كان من الطبيعي أن يجعل سمات هذا الممدوح «مخلّدة» بين الصالحين من الناس و مناقبه سائرة باقية في العالمين لا يأتي عليها البلى, و هنا أيضا تقفز إلى الذهن سير و خصال أنبياء الله و رسله التي يتخذها الصالحون من الناس منهجا في الحياة، معنى ذلك أن الشاعر يمنح ممدوحه صفة الخلود بمناقبه و خصاله مثلما خلدت أصفياء الله شيمهم و خلالهم. و ما دام قد رفعه إلى هذا المصفّ، فإنه من البديهي أن يجعله منصورا من الله في الحرب التي أعلنها على الشرك الذي تكون هزيمته في هذه الحال و حسب منطق الشاعر قدرًا محتوما «هو القدر المحتوم من ذا يرده ؟ «، فالله عز و جل هو الذي يعزز جانبه مثلما عزز رسله و نصرهم و كتب أن تكون الغلبة له و لهم « كتب الله لأغلبنّ أنا و رسلي، إنَّ الله قوي عزيز»[57]، من هذا المنظور الذي تبناه الشاعر لا يكون النصر مفاجئا، لأن صانعه هو الله، و من ذا يشكك في قدرة

الله و نفاذ إرادته ؟ أو كما قال ابن دراج «و سلطان رب العرش من ذا يغالبه ؟».

ونرى ابن دراج يردد في مواضع أخرى من القصيدة نفسها تدخل إرادة الله إلى جانب المنصور في محاربته حزب الشرك، بل يترك أحيانا الحديث عن ممدوحه جملة و يجعل الحرب حربا بين ممثل الشرك «غرسية» و بين الله، فكأن ضربا من التماهي في مثل هذه الحال يحدث في ذهن الشاعر بين بطله و بين الخالق تعالى، فيجعل الله ينوب عن المنصور كما في قوله[58]:

فلما رأي «غرسية» أنه الـــردى يقينا و أن الله لا شكـــــ غالبه

وأيقن أن الله صادق وعـــــــده وأن أماني الضلال كواذبـــــــه

وأخلفه الشيطان خادع وعـــــده وأيقن أن الله عنك محاربـــــــه

إن مثل هذه المعاني تشِفُّ عن امتلاء جوانح الشاعر إعجابا بمنجزات ممدوحه، فكاد تحت تأثير نشوة هذا الإعجاب الذي بلغ درجة الهيام بالبطل، أنه ينسى أن المنصور آدمي، لذلك لا يكاد يريكه يحارب خصومه مفردا بقوته أو بقدراته البشرية بل كثيرا ما يجعل السماء تعضده و تشد أزره في حروبه كما صنع في افتتاح قصيدته في تهنئة ابن أبي عامر بأسر ابن فرذلند، فقد قال[59]:

تناضل عنك أقدار السمـــاء وتبطش عن يديك يد القضاء

وما دامت « أقدار السماء» هي التي تناضل عنه و» يد القضاء» هي التي تبطش عن يديه، فإن قدرته ستكون من قدرة الله تعالى، ومثلما أن

المولى عزَّ وجلَّ يراقب كل صغيرة وكبيرة في الكون ولا يمكن لشيء فيه أن يخفى عنه أو يلفت من قبضته[60]، فإن قبضة المنصور هو الآخر على الدنيا محكمة، فهو يراقب فيها كل مكان حتى لا يمكن لأيٍّ كان مهما بعدت به الشقة أن ينجو منه إذا أراده ولو طار بنفسه في الهواء إمعانا في الهروب والاختفاء للإفلات من قدر محتوم هو رماح العامري التي تطلبه، وفي هذا المعنى يقول القسطلي[61]:

فما قصرت رماحـــك عن عدو و لو أعيا به أمد التنائــــي

إذا أشرعتـــــها في إثر غـــــــاو(فقد ضاقت) به سبيل النجاة

و لو طارت به (ألـــف عقـــــاب يرمن) بنفسه خرق الهـــــواء

و أين يفـــــر عن درك المنايـــــا و أين يشذ من تحت السماء؟

ألا نرى هنا أن قدرة المنصور قد تجاوزت حدود قدرات البشر وأضحت صنوا لقدرة الخالق تعالى الذي «لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات و لا في الأرض[62]».

إن ابن دراج وإن كان لا ينكر قدرة الله عز و جل على الفعل الذي ليس في مقدور البشر تغييره أو زعزعته، فإنه يرى لممدوحه قدرة مماثلة لقدرته على التصرف، لا لشيء لأنه يرى أن إرادته جزء من إرادة الله فيما يصنعه في الشرك و المشركين. و هذا الالتقاء بين الإرادتين، إرادة الله و إرادة المنصور، في ذهن الشاعر، هو ما رخص له أن يتصور تركيز ممدوحه دعائم ملكه في الأرض نظيرا لعمل الله الذي ألقى فيها رواسي ليثبتها حتى لا تميد بالناس[63]، قال ابن دراج من قصيدة مدح بها ابن أبي عامر[64]:

وأنت ركزت الملك في الأرض مثلما يثبت فيها ذو الجلال و ما يمحو

و لهذه القوة «الخارقة» التي مُنِحَها المنصور- كما قرّ في خلد الشاعر- علاقة بالرسالة التي حمل أمانة تبليغها و حمايتها، و التي لا نكاد نجد قصيدة له في المنصور خالية من الإشارة إليها، و هي الدفاع عن دين الله و حماية المتمسكين به، لذلك فإن الثنائية الضدية:الإيمان/الشرك دائمة الحضور في أغلب شعره الذي مدحه به، لذلك كان من الطبيعي ألا يريكه إلا متقفيا آثار الشرك و أتباعه لاستئصال شأفتهم و اجتثاث جذورهم من أصولها حتى لا تبقى لهم باقية(65).

ولا ينبغي أن نعتقد أن الأمجاد الحربية كانت السبب الوحيد في تعلق القسطلي بممدوحه، وأنه لم يجتذبه في شخص المنصور إلا ما عرف به من شجاعة و بسالة و ما امتلأ به سجله الحربي من أمجاد، فهذا الجانب كان حقا وراء الصورة التي نقشها لابن أبي عامر بأحرف من ذهب و التي تعبر عن تعلق وإعجاب شديدين بالممدوح، حتى ليكاد متأملها يوقن أن القسطلي استفرغ في نحت تمثال بطله كل جهده و لم يبق لديه ما يضيفه لها أو ما يذخره لغيره ممن سيتصل بهم بعد المنصور، و هو نفسه أحس أن صورة ممدوحه كما انطبعت في نفسه أثرى من أن يحيط بها لسانه وقلمه، فكأنها —كما تصورها- تجل عن الضبط و التحديد(66):

لانظم أشعاري و لا نثري و لا صحفي و لا جهد اللسان و لا القلم

مما يقوم بنشر أيسر ما طـــوى صدري من الإخلاص فيك و ما كتم

بالإضافة إلى هذا الجانب البطولي الذي جعله يضفي على شخص المنصور صفة عجائبية، هناك جانب آخر مكمل لهذا أشرنا إليه في قراءتنا قصيدته الأولى في ابن عامر، و هو ما وجده إلى جواره من راحة مادية كفته شر الفاقة التي كانت تتهدد عياله، لذلك فإن ابن دراج كان يرى في ممدوحه المنقذ الفادي الذي انتشله من أنياب الفقر و أبعد عنه وعن أهله شبح الموت الذي كان يترصدهم، مثلما أبعد عن الأندلسيين أنفسهم ما كان يترقبهم من أخطار جيرانهم كما رأينا، و هنا نلاحظ أن العطاء المادي الجزيل الذي اتصف به العامري لم يعد محض كرم و سخاء في نظر الشاعر إنما أضحى عنصرا من عناصر البطولة و النضال المستمر لحماية الرعية و ضمان أمنها، فإذا كان العدو في الصورة الأولى للبطولة بشرا، فإنه في هذه المرة صروف الدهر و غوائله التي كانت تتربص بابن دراج نفسه الدوائر، فانتدب المنصور نفسه لمنازلتها فألقت إليه هي الأخرى بأيدي الذل، قال في هذا المعنى[67]:

فتى أذعن الدهر الأبي لحكمه فأضحى إليه ملقيا بالمقالـــد

لذلك حق للقسطلي أن يرى فيه ملاذا من سهام الدهر و ضرباته ومأمنا من الخطوب و فواجعها، قال[68]:

ملاذنا من صروف الدهر إن طرقت دهما و مفزعنا في الخطب إن قدحا

و قال في قصيدة أخرى يمدحه فيها[69]:

وجود تناهى في الخلائق و انتهـــت إلى (حاتم) في الأكرمين مناسبـــــه

تقضت رجاء الراغبين سجالـــــه و عمت كما عم الغمام مواهـــبه

و ملجأ أمْن المستضام و معقـــل كفى الدهر هو حتى ما تنوب نوائبه

صحيح إن المعاني التي استخدمها القسطلي إذا نظرنا إليها مفردة وجدنا كثيرا مما يماثلها في المدح التقليدي، لكننا إذا تأملنا ها في الإطار الذي وظفت فيه بدا لنا أن الأمر لا يتعلق بترديد أو إعادة إنتاج معان رسخت في تقاليد شعر المدح عند العرب، فسياق الأبيات يبرز صراعا بين قوتين: قوة الدهر التي قهرت الناس و قوة العامري المنافحة عنهم لتفريخ روعهم و التنفيس عن كربهم، و حسب سياق الأبيات دائما، فإن الصراع حسم بانتصار الممدوح على الدهر و ظهوره عليه، أي انتصار الحياة على الموت الذي يتهدد هؤلاء المكروبين، معنى ذلك أن الكرم في السياق الذي يتحدث فيه ابن دراج ليس عطاء من أجل العطاء أو للإبانة عن شيمة راسخة لدى الممدوح و كفى، إنما يتنزل في إطار الحرب التي أعلنها المنصور على كل ما يتهدد حياة الناس و ينغصها و يربك على الخلق وجودهم، فغاية المنصور —في مخيال ابن دراج– غاية واحدة في جميع الأحوال، و هي الانتصار للحياة بدلالتها الشاملة بالسهر على إعادة ترتيب عناصرها سواء في حربه على الشرك و المشركين انتصارا لدين الله أم في جبره أحوال الناس بما يكفيهم شر الفاقة و يدفع عنهم شج العدم.

ما كان لابن دراج أن يترك صورة ممدوحه منقوصة من صفة العلم الذي كانت سوقه نافقة في الأندلس يومئذ، خاصة أن المنصور نفسه كان له إسهام وافر في تنشيط الحركة الثقافية في هذا العهد، فمجالسه الأدبية كان يغشاها الأدباء و الشعراء و العلماء فكانت تجري بينهم مناظرات

في مسائل أدبية و لغوية، و لم يكن ابن أبي عامر في هذه اللقاءات مجرد شاهد أو متفرج في ما كان يجري فيها من مناقشات و مباحثات، إنما كان يدلي بدلائه فيها، لذلك لم يكن ابن دراج و هو يمدحه براعية العلم و الشعر إلا معبرا عن واقع كان فيه شاهدا كما في قوله[70]:

فحق للعلم أن يزهى به فرحا و حق للشعر أن يشدو به طربا

ولكن عدا هذا البيت الذي تضمنته قصيدته التي أنشدها في المجلس الذي اختبره فيه المنصور فنصره على خصومه الذين نسبوه إلى سرقة الشعر و انتحاله، لا نجد في ديوانه الموجود بين أيدينا مدحا آخر صريحا لهذا الجانب في شخص ابن أبي عامر، مع أن مؤرخي الأدب المغاربة و الأندلسيين كابن عذاري و ابن بسام و المقري و غيرهم يتحدثون بوضوح عن شخصيته الثقافية، و نظن ظنا أن طغيان الجانب الحربي الجهادي لديه و الذي أبرزه بطلا «أسطوريا» عديم القرين في زمانه، إلى جانب سخائه الذي كاد يتحول هو الآخر أسطورة من أساطير عصره، كانا مما غطّى على الجوانب الأخرى في شخصيته كما صورها لنا ابن دراج.

إذا عدنا إلى تأمل شخصية المنصور على النحو الذي رسمت به في شعر القسطلي وجدنا عنصرين رئيسيين تظافرا في تكوينها أولهما تاريخي يتعلق بما ورثه المنصور عن أجداده الأقدمين من مناقب و شيم،و ثانيهما ديني نلخصه في العناية الربانية التي ترافقه أينما حل. في ما يخص العنصر الأول، نلاحظ أن الشاعر يعود إليه لا ليجعل منه بديلا عن الحاضر، إنما يحييه ليفسر به حاضر الممدوح و حاضر الأمة في الوقت نفسه، فالتاريخ

كما تجلّى في مدحه المنصور يبدو حلقات متصلة يفسر سابقها لاحقها، فالمنصور إذا كان قد بلغ ما بلغه من سلطان فلأن وراءه إرثا من الماضي ثقيل، و هذا الماضي في نظر ابن دراج هو الحجة الدامغة على قيام الحاضر بالصورة التي هو قائم عليها، و بذلك يغدو التاريخ حركة متصلة لا انقطاع فيها، فاتصال ماضي الأسلاف بالحاضر متحقق من خلال المنصور نفسه. و الشاعر بتركيزه على البعد التاريخي في شخصية بطله إنما كان يهدف —كما ألمحنا من قبل- إلى دحض حجة أموية الأندلس و أنصارهم الذين كانوا يرون في الحاجب المنصور مغتصبا للحكم من بين أيدي أهله الشرعيين.

أما العنصر الثاني فهو ديني، فبطل ابن دراج —كما يبدو في الظاهر- يعيش الواقع الحي و يصنع أحداثه، سوى إن ذلك حسب البعد الديني في شخصيته كما تمثلها القسطلي كان يتحقق له لا بوصفه كائنا بشريا مثله مثل غيره من الخلق، إنما لأنه محاط برعاية المولى عز و جل الذي رأينا الشاعر يماهي -أحيانا- صفات بطله بصفاته و بصفات أنبياء الله تعالى، و الإلحاح على هذا العنصر في شخصية الممدوح يؤدي إلى القول إن موجه الأحداث ليس هو المنصور من حيث هو إنسان إنما المولى تعالى جلت قدرته هو الذي كان يصرفها كيف يشاء، وإذا كان الأمر كذلك فهل يبقى مجال للحديث عن البطولة؟

الحقيقة إن القسطلي من حيث لا يدري كان يترع عن المنصور «الآدمي» صفة البطولة، لأن البطل الحقيقي هو الذي يخوض في الأهوال

من أجل غاية مقدسة من دون أن تكون له ضمانات مسبقة بمآل الأمور، أما ابن أبي عامر كما قدمه شاعره فإنه أشبه ما يكون بأبطال الملحمة الإغريقية الذين كانوا يُقَدمون على أنهم آلهة أو أنصاف آلهة يتمتعون بقدرات خارقة، لكن حتى في هذه الحالة فإن التشبيه يبدو غير مطابق، لأن الصراع عند الإغريق في مثل هذه الأحوال كان يجري بين الآلهة أي بين قوى متكافئة و يكون البشر ضحية لتروات هذه الآلهة أما في حالة ابن دراج فإن بطله الذي يرعاه الحي القيوم، ينازل بشرا غير معززين بأية قوى خارقة، فالصراع على هذا غير متكافئ من ثمَّ يغدو البعد الإنساني عند بطله محل تساؤل، فهل تعوض الصفات الإنسانية التي نسبها إليه و المشاهد التي أبرزه فيها و التي تبعث الذعر في خصومه الجوهر الإنساني الذي سلبه منه؟

الهـــوامـــش:

1 - ابن عذاري، البيان المغرب في أهل الأندلس و المغرب تح ومراجعةج.س.كولان و إ.لفي بروفنسال، ط .3. دار الثقافة، بيروت 2/273.

2 -حسين مؤنس، معالم تاريخ الأندلس ط: 1، القاهرة 1980 ص303 .

3 -المقري أحمد بن محمد التلمساني نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1/402-403 .

4 -لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلامن ملوك الإسلام، تح إ. لفي بروفنسال، بيروت 1956، 2/77، و راجع تفاصيل ذلك عند المقري، نفح الطيب 1/396-397 .

5 -الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس تح، إبراهيم الأبياري ط 2، دار الكتاب اللبناني بيروت 1983 ص 177.

6 -الحميدي، جذوة المقتبس.ص 179 .

7 -ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح الدكتور إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1975، القسم الأول المجلد الأول من 59-60.

8 -ابن بسام الذخيرة ق 1، م1 ص 60.

9 -ابن دراج القسطلي، الديوان تح الدكتور محمود علي مكي ط:2، المكتب الإسلامي 1389هـ (مقدمة المحقق) ص49.

10 -الحميدي، جذوة المقتبس ص 177.

11 -ابن دراج، الديوان ص 310-309.

12 -ابن بسام، الذخيرة ق 1 م 1 ص 60.

13 -ابن دراج، الديوان ص 310 و 309.

14 -الحميدي، جذوة المقتبس،ص 177 و ص 181.

15 -ابن بسام، الذخيرة ق 1 م 1 ص 61.

16 -ابن بسام، الذخيرة، ق 1 م1 ص61.

17 -ابن بسام، الذخيرة ، ق 1 م 1ص 60.

18 -المقري، نفح الطيب 1/398.

19 -المقري، نفح الطيب 1/403.

20 -الحميدي، جذوة المقتبس ص 132-131.

21 -ابن دراج، الديوان، مقدمة المحقق ص48.

22 -ابن دراج، الديوان، مقدمة المحقق ص 49.

23 -ابن دراج، الديوان، ص 10.

24 -ابن دراج، الديوان ص 11.

25 -ابن دراج، الديوان ص 11.

26 -ابن دراج، الديوان ص12-11.

27 -ابن دراج، الديوان ص 12.

28 -النور،الآية 35.

29 -ابن دراج، الديوان ص 10.

30 -ابن دراج، الديوان ص 12.

31 -الوساطة بين المتنبي و خصومه، تأليف القاضي علي عبد العزيز الجرجاني، تح و شرح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، دار القلم، بيروت (د.ت)،ص 374-373.

32 - قال المحقق «ولسنا ندري ما إذا كانت القصيدة الهائية الواردة في الأوراق الماضية من الأصل قد انتهت عند آخر الورقة التي تحمل رقم 5 أم أنّ لها بقية سقطت؟»، ابن دراج، الديوان ص 13 هامش 1.

33 -حكم شانجة هذه المملكة بين سنتي 360 و 382 هـــــ، أي أنه كان معاصرا للحكم المستنصر و المنصور بن أبي عامر.

34 -راجع، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، مرجع سابق، ص 73- 74، و قد نبه على ذلك محقق الديوان، راجع ابن دراج، الديوان ص 50. (مقدمة المحقق).

35 -ابن دراج، الديوان ص 335.

36 -المقري، نفح الطيب، مرجع سابق 1/403.

37 -ابن دراج، الديوان ص 336.

38 -ابن دراج، الديوان ص 336.

39 -ابن دراج، الديوان ص 336.

40 -راجع ابن دراج، الديوان ص 337-336.

41 -ابن دراج، الديوان ص 337.

42 -ابن دراج، الديوان ص 338.

43 -ابن دراج، الديوان ص 338.

44 -ابن دراج، الديوان ص 342.

45 -ابن دراج، الديوان ص 350.

46 -راجع الزمر، الآية 71.

47 -ابن دراج، الديوان ص 333.

48 -المائدة الآية 56.

49 -ابن دراج، الديوان ص 334.

50 -الملكـــ الآية 4.

51 -النور الآية 35.

52 -ابن دراج، الديوان ص 329-328، مدحه بهذه القصيدة بمناسبة صدوره من بلاد غرسية بن شانجة بعد الغزوة المسماة بـــــ «غزوة حربيرة» التي حقق فيها المنصور نصرا ساحقا على الائتلاف النصراني الذي تزعمه غرسية بن شانجة.

53 -البيت هو: و أنفس نفس في الورى غير أنه إذا لقي الأعداء فهو بها سمح

54 -راجع النساء الآية 74 و البقرة الآية 207.

55 -الشورى الآية 36.

56 -ابن دراج، الديوان ص 321 و ص 323.

57 -المجادلة الآية 21.

58 -ابن دراج، الديوان ص 322و ص 323.

59 -ابن دراج، الديوان ص 368.

60 -راجع هذا المعنى في سورة الزمر الآية 67.

61 -ابن دراج، الديوان ص 369.

62 -سورة سبأ الآية 3 و راجع هذا المعنى في سورة يونس 61.

63 -راجع هذا المعنى في سورة الأنبياء الآية 31 و في سورة النحل الآية 15، و في سورة الحجر، الآية 19، و في سورة النمل الآية 61.

64 -ابن دراج، الديوان ص 331.

65 -ابن دراج، الديوان ص 313-312.

66 -ابن دراج، الديوان ص 358.

67 -ابن دراج، الديوان ص 345.

68 -ابن دراج، الديوان ص 341.

69 -ابن دراج، الديوان ص 321.

70 -ابن دراج، الديوان ص 310.